أديبات:

أرسلت «باحثات» إلى عدد من الأديبات اللبنانيات
السؤال التالي: «لمن تكتبين»؟ وهنا الإجابات:

ندى رمضان

أراه واقفاً يهمّ بالخروج من البيت. لأناقته رائحة تبقى بعد أن يغادر، تضوع بين الغرف من غير ترتيب وكأنه هنا، ما يزال، أو كأنه عائد للتو، تسبقه رائحة أناقته.

ثم جالساً إلى قهوته برفقة دخان سيجارته. أرى عزلته واستكباره وهدوءاً يشبه الحزن. ثم تلك الضحكة العالية. تحار إذ تسمعها أي جزء منها حقيقة وأي جزء ادعاء. لكنك تضحك لنغمتها، للونها، ولأنه يضحك.

كان يناديني وأنا في الغرفة التي كان يسمّيها غرفة البنات، ليقرأ عليّ قطعة نثر أو شعر أعجبته، وكنت أؤمن أن ما ينتقيه هو النثر حقاً وهو الشعر حقاً دون غيره. ذوقه الصعب في كل شيء وقساوة حكمه على الناس خرّبت بوصلتي لوقت طويل. أرى العالم بعينيه فيصغر ويزوغ بينما لا يبقى كبيراً إلا هو ولا عظيماً سواه.

كنت أكتب شيئاً قريباً من الشعر. «بائع الياسمين» أذكر، و«أنا امرأة شرقية»، وكنت في العاشرة من عمري. كنت أخفي قصائدي لأنها ليست «كاملة»، ولأن حماستي تجفله. كان ينتقد حركة يديّ ونبرة صوتي والدموع التي سرعان ما تعيش معها حجتي وحيلتي. فكيف اطلعه على تحزّبي مع بائع الياسمين ضد فقره أو مع شرقيتي وضدها في آن؟

وقع مرة على دفتر حسابات كبير كنّا نسطّر عليه، ابن عمتي وأنا، أقوال الهجاء التي نتبادلها «زجلاً» أيام العطل. سمعته يقرأ بعضها لأمي، يوافق ويضحك. لم يكن يعلم أني هناك، أسمع وأسيل رقة وأسمن فخراً. ثم نادى عليّ. تسليت، حسناً، قال. عليك أن تهتمي الان بأمور أكثر جدية. مزّقت هجاءاتي ورقة ورقة ورميت بها نتفاً صغيرة في فضاء ما تحت شرفتنا، وتوقفت عن تلك التسلية.

بدأ تمردي عليه عندما أخذت اكتشف أني مختلفة، وأني قادرة على مجابهته في اختلافي.

وأخذت نقاشاتنا منحى ثانياً ولم يعد ذوقي في الأدب ذوقه ولا في اللباس ولا في الناس.

شيء وحيد لم يتغيّر. كانت عينا أبي تحضران عند كل اختيار، تتفحصان، تنظران من فوق أو بطرفهما، قاسيتين أو متسامحتين. لكني غالباً، في تلك الفترة، ما كنت اختار عكس ما تمليه تلك النظرة عليّ.

لا أذكر متى رجعت إلى الكتابة بعد موته. كتبت عنه كتابة مبتورة وناقصة، وكنت أودّ أن أنقل شيئاً ما في شخصه لم أحدده حتى الساعة. أهو ذلك الهروب الذكي المتخلي باستعلاء عن كل ما يربط ويجمع ويجمح بنا؟

كتبت عنه كأني أستعيد رقصة التانغو. أرجع قدمي إلى الوراء مرّة أخرى لأحسن خطوها مرتين إلى جنب. كان جسمه الكبير الأنيق يسيّر النغمة فكأنه على حافتها، أو كأنه يعيد توزيعها من جديد. وكيف لا أغلط وهو يشرف عليّ، وكيف لا أتعثّر وهو هنا، وهو مَن يعلمني؟

كتبت عنه يولي ظهره إلى العصر الذي أباح تحلق «الجماهير» ـ وكان يلفظ الكلمة بسخرية تطيل ألف الوسط وتكسر الياء بمبالغة ـ حول شخص واحد، والعصر الذي جعل العظمة في غير مواضعها. كان يتناول الكأس ليستحضر عوالم أخر، يقطفها من الشرق والغرب البعيدين حيث فتنة الذكاء وفتنة القوة والكرم.

ظللت أرسم له، في حضرته، تلك الصورة التي كنت أحسب أنه يريدها لي. وكان يحزر ضعفي، بينما أقع أنا في ازدواجية أنه عارف وأني أمثل. فأكرهه لذلك واستمر في لعبة «الغميضة» تلك.

كتبت ضده. تلحق نظرته بي وأنا أتعرف على بيروت التي حجبها عني. المدينة المدينة حيث تسير على قدميك فتعترضك وجوه تردّها إلى أبنية، إلى مهنٍ وإلى انتماءات، وتسير مع صحبة ولا تعرف أن ذلك الزقاق مسدود وينتهي هنا، إلا عندما تلجه.

كتبت ضد أن أعرف دون أن أرى وألمس.

وكتبت ضده لأني مشيت في التظاهرة الكبيرة وهمّ وحيد يصحبني. هل سيعلم بما اقترفت؟ أني بين الجمع وأني في الضدّ، مرة أخرى. وأني أعلن انفعالاً ما؟

كتبت ضد كونه يختصر الرجال جميعاً بالنسبة اليّ. ضدّ المقارنة الواعية ـ اللاوعية التي أقيمها كلما خطرت أمامي قامة أو امتدّ صوت. التفت إلى مَن يشبهه أو إلى من لا يشبهه وهو في الحالين حاضر حضوراً مرهقاً.

أكتب عن حبيبي فيكون ذلك خلسة عنه وعن موته. وهو وقف حائلاً دون الكثير مما لم أكتب.

أكتب إليه. أصف نفسي وأفرضها عليه بعد مماته، كمَن يستغفل وجود الخالق والقدر، كمَن يختبىء «وراء اصبعه». أقول له هذا أنا، أحبّ هذا وأحبّ هكذا. انظر اليّ، اقبلني. وأعرف أني أستغل غيابه ليقبل، وأعرف أنه وهو ميت لن يفعل.

أكتب إليه اختلافي وأساومه عليه. أقول ضعفي أمام ولديّ لأني هكذا أحبهما، وأقول انفعالاتي التي لا يحبها. ثم أقول إني كسرت تكراراً كل المثالات التي صنعها لي، ولا زلت.

أكتب غياب أبي. تفاصيل غيابه واكتشف كم عظيم هو هذا الغياب. يمتلىء عالمي الصغير به فلا أعود أعرف حدوداً بين الحسرة والعيش، كمثل «نحيا/ في الغياب الذي هو/ مكانك» (بسام حجار) فاكتب اتساع وحدتي وهولها وأزينها مجازاً لاحتمل عبأها. ثم أكتب أني لا أنتمي إلا إليه، وإن موته جعل حضوره أقوى وأصعب. فهل الكائن الحي وحده هو مَن يقيم في الزمن؟

أأكتب عنه؟ ضده؟ إليه؟ أو عن أي شيء أو إنسان اخر؟ أعرف أن القليل الذي كتبته كان له. أمجّد تخليه عن الحياة وهو الذي عبّ منها ولم يرتوِ، وأقدّس أراءه كلها ولا أوافقه على أي منها.

أكتب تعطل ساعة الزمن التي كان يوقفها، يضبطها على ساعته ويسير.

ثم أكتب له كيف يعثّر كلماتي، يعيق ترتيبها ويخربط الأفكار.

أهدي لأبي ما أكتب،

تحضر عيناه، تمرّر نظرة زيتية على ما أقول.

تقرأ، تلتف على الكلمات، تعيد نسجها، تثني عليها ثم تمحوها.